فى الادب الانجليزى

أثر النهضة الاوربية

فى الأدب بانجلترا

بقلم الأستاذ رشدى ميخائيل السيسى

فى أواخر القرون الوسطى أخذ يغمر أوربا بالتدريج تجديد شامل فى الأدب والاجتماع والسياسة والدين لعدة عوامل مستحدثة ، فكان أن خرجت أقاليم هذه القارة من غمرة العصور المظلمة التى لم يك بها أى أثر للحرية الفكرية إلى عصر آخر منير انطلق معه الفكر الأوربى من إسار الجهل وعقال التضييق ، ولقد تعارف المؤرخون على أن يسموا فترة التجديد هذه من تاريخ أوربا بعصر النهضة الأوربية «Renaissance».

وليس يعنينا أن نحدد مبدأ هذه النهضة أو نعرف هل هو فى القرن الثالث عشر أم الذى يليه ، ولا أن نحصر العوامل التى أنتجت هذه النهضة ، إنما الذى يعنينا ويهمنا أن نثق بأن هذه النهضة قد درجت فى سبيل التقدم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وعاشت نامية فتية حتى أدركت القرن السادس عشر ، فانكشفت منها مآرب عدة اختلفت صورها باختلاف أمم أوربا ، فانتحت بإيطاليا وفرنسا ناحية الآداب والفنون ، وبألمانيا ناحية الدين ، وبأسبانيا والبرتغال ناحية الاستكشافات الجغرافية ، أما بانجلترا فقد تشعبت إلى معظم هذه النواحى ، ولذلك تأخرت هذه الأمة فى تكريس عنايتها الحقة بالأدب حتى عصر اليصابات فى أواخر القرن السادس عشر لأسباب محلية محضة . ولا بد أن نعترف بما كان لتأخر ظهور النهضة فى انجلترا من الأثر الكبير فى تسهيل نجاحها ، فقد كان انتفاع كتاب الانجليز بما لديهم من آداب اللغات الأوربية الحديثة من أكبر العوامل التى نهضت بلغتهم بسرعة تكاد تعدم مثيلا لها ، وكان أن تميزت النهضة الانجليزية بعنايتها فى نشر كتب الأقدمين بلغة البلاد ، فترجمت إلياذة هومير وخطب شيشرون ومصنفات فيرجيل وأوفيد وغيرهما إلى الإنجليزية ، ولا يخفى ما فى ذلك من المساعدة على بث روح النهضة الأدبية بين طبقات الأمة .

وفى الحق أن النهضة الأوربية بشتى عواملها قد أثرت فى الأدب الإنجليزى أيما تأثير ، حتى بلغت به فى هذا العصر الأليصاباتى حداً من الروعة والازدهار يسوغ له أن يتحدى عصر بركليس الذهبى فى الآداب اليونانية بوفرة إنتاجه وخصوبته وبتعدد الشخصيات الأدبية العالمية

التى ظهرت آنئذ، أمثال: شكسبير وابن جنسون Benz ouson فى الشعر التمثيلى، وملتون وسبنسر فى الشعر غير التمثيلى، وباكون وهوبز فى الفلسفة، وهوكار وتايلور فى اللاهوت، ولورد كلارندن فى التاريخ، وهم فحول أدباء الطبقة الأولى .

ونحن إذا عدنا القهقرى إلى ما قبل هذا التاريخ بقرنين، أعنى فى أواخر القرن الرابع عشر، نجد أن « شوسار » الشاعر الانجليزى الكبير قد تأثر فى كتاباته بالأديب الإيطالى الكبير « بوكشيو » الذى اشترك فى تحطيم خرافات القرون الوسطى، وعمل على إقامة صرح النهضة الشاهق على أنقاض هذه الخرافات ؛ ومن شوسار انتقل ذلك الأثر إلى من بعده من كتاب الانجليز ، وإذن فما أنت ترى أنه كان فى المقدور أن يتأثر الأدب لانجليزى مبكراً بالنهضة الأوربية لولا بضع عوامل محلية يمكن تلخيصها فيما يأتى : —

١ ـ انعزال انجلترا عن بقية ممالك أوربا، وخاصة عن إيتاليا مهد النهضة ومتبعها .

٢ ـ تبديد نشاط رجال الأدب وتشتيت جهودهم لانشغالهم مع الأهلين بحرب الوردتين الأهلية.

٣ ـ وفرة الملوك والملكات الذين حكموا البلاد فى هذه الأثناء واختلاف نزعاتهم ومشاربهم، الأمر الذى كان يدفع البعض منهم إلى الإمعان فى إساءة الحركة الفكرية بالبلاد لمعارضة السالفين فحسب .

ـ ٤ انصراف الأدباء عن الإنتاج إلى حين لاشتراكهم فى حركة الإصلاح الدينى .

ـ ٥ تورط العرش فى تقييد الحرية الفكرية فى بعض الأحيان ، كما حدث من الملكة مارى تيودور التى استطاعت فى محاربة معارضى سياستها ومخالفى مذهبها الكاثوليكى .

وقد كان من نتائج هذه العوامل أن رزئت انجلترا بجفاف فكرى ويعقم بئيس فى شخصياتها الأدبية الكبيرة وأن قل فيها الانتاج الأدبى ، وكان من المقدر أن تطول فترة هذا العقم الأدبى لولم يسخر الله للأدب الانجليزى آنئذ معظم عوامل النهضة الأوربية فأمدته بمناعة ضد الانحطاط المنتظر والتحته بما أنبت شجرة الأدب الأليصباتى المتشابكة الأغصان . نعم، فلولا اختراع الطباعة وفتح القسطنطينية وما ترتب على هذا الفتح من الإقبال على ترجمة المؤلفات الأدبية القديمة فى نهم وظمأ ، ومن انتشار العلماء المعلمين بمعظم بقاع أوربا ، لاختلفت حال انجلترا الأدبية فى هذه الحال عما وصلت إليه.

وليس ثمة مايمنعنا من أن ننبه بأن نهضة إحياء العلوم « وهى إحدى نتائج فتح القسطنطينية » قد اتجهت بانجلترا اتجاهات خاصة لم يكن الأدب أحدها ، أو كان على الأقل بعيداً عنها فى مبدأ الأمر ، ولذلك تشكلت أو تقمصت فى هياكل السياسة والدين والاجتماع ، بيد أن هذا لم يظل إلا لما بعيد الاصلاح الدينى فحسب ، وبعد هذا شملت الأدب أيضا .

أثر فتح القسطنطينية:

ويذهب شيخنا الاسكندرى فى كتابه « تاريخ أوربا الحديثة » إلى تقرير بضع عوامل لظهور نهضة إحياء العلوم «Revival of Learning» فى ذيلها جميعاً « فتح القسطنطينية ». وأنا أريد أن أخالف شيخنا الفاضل فيما ذهب إليه، إنما بقسط ، ذلك لأنى أعتقد اعتقاداً جازماً أن فتح القسطنطينية لم يكن السبب الأول والوحيد فى ظهور نهضة إحياء العلوم هذه فحسب ، بل من أقوى الدعامات التى قامت عليها النهضة الأوربية ذاتها .

أجل ، فقد كان من نتائج هذا الفتح فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر أن انتقلت أوربا إلى عصرها العلمى الحديث ، فإذ كانت القسطنطينية فى ذياك العهد هى محط الفلاسفة والعلماء الأعلام، حتى هؤلاء جميعاً ـ بعد هذا الفتح ـ أن تصادر حرياتهم وأن تنتزع منهم كنوزهم من المؤلفات العلمية وأن يرغموا على القيام بأمور تأباها كرامة العلم ، فهجروها حاملين معهم هذه الكنوز الأدبية إلى حيث حطوا رحالهم بإيطاليا، ومنها انتشروا إلى بقية ممالك أوربا . وإذ كانت فلورنسا بإيطاليا هى أول مكان حط به هؤلاء العلماء المشردون رحالهم ، فقد سبق هذا الإقليم بقية بقاع أوربا فى هذه النهضة العلمية الحديثة . وقد سارعت أسراب الشبان من جميع أنحاء أوربا إلى فلورنسا كيما يشبعوا نهمهم من زخيرة العلوم والآداب التى تكدست فيها ، ولم يكن نصيب الانجليز من هذه العلوم بأقل من غيرهم، فقد هاجروا إليها حيث تعلموا اللغات الحية وتشبعوا بالآراء الحديثة فى الاجتماع والأدب، ثم عادوا إلى بلادهم وهم مثقلون بأسلابهم الثمينة، فلم يضنوا بها على مواطنيهم إنما وزعوها فى إخلاص وفى غيرة صادقة فذاعت هذه الآراء وهذه العلوم بانجلترا أيما ذيوع .

وفى الفترة التى أعقبت هذا الفتح قام نزاع دينى عنيف بين الكنيسة الكاثوليكية ومعارضيها من راغبى الإصلاح الانجليز ومن المتطرفين ، فأثر هذا النزاع ـ إلى أكبر حد ـ فى مدى انتشار الثقافة الحديثة ، إذ حاربها رجال الدين وشنوا عليها الغارة ، لاعتقادهم أنها السبب المباشر فى تحرير الأذهان وتمردها وخروجها على طاعة الكنيسة ، كذا أثر فى الثقافة أن اضطر الشعب كله إلى الاشتراك فى هذا النزاع وانصرافه عنها ولو إلى حين .

أثر اختراع الطباعة:

وفى منتصف القرن الخامس عشر وقع حادث هام فى تاريخ الآداب كلها ، أجل ، فقد اخترعت الطباعة إذ ذاك بالطريقة المستعملة حديثاً، وبهذا الاختراع حفظ الأدب القديم من الضياع، بل انتشر هو والمستحدث فى كل مكان وذاع أكبر ذيوع ، وكان « وليم كاكستون » أول انجليزى اشتغل بالطباعة وإن كان قد سبقه فى هذا الفن « يوحنا جوتنبرج » الألمانى.

نشر كاكستون عدة كتب قيمة استنفدت منه مجهوداً كبيراً لصعوبة الطباعة آنئذ ، وأهم هذه الكتب على الإطلاق كتاب « لعبة الشطرنج » و « حكم الفلاسفة » و « تاريخ تروادة » .. « والخرافة الذهبية » ؛ وبهذا المجهود الرائع وغيره من جهوده الجبارة تيسر لكاكستون أن يحافظ على مستوى الانجليزية من الانحطاط ، ذلك المستوى الذى وصل إليه شوسار الشاعر الانجليزى الكبير ، وفى الحق أن عمل كاكستون ، وإن كان آليا محضاً ، ولكن فضله على الأدب لا يمكن إغفاله لحاجة البلاد اللازمة إذ ذاك إلى المؤلفات القديمة القيمة ، هذا عدا حسن اختياره للمؤلفات التى قام بطبعها ، الأمر الذى ساعد على تهذيب اللغة إلى حد كبير .

أثر الترجمة :

وقد استهل الانجليز استغلالهم للحركة العلمية بترجمة المؤلفات القيمة لكبار الفلاسفة الأقدمين من الإغريق والرومان أمثال فيرجيل وأوفيد وشيشرون وديموتينس ، وفى الحق أن نهضة الأدب الانجليزى وازدهاره تعود فى أساسها إلى فضل هذه الفترة بالذات ، وإن ترآى لغير الراسخين أنه قد ابتدع ابتداعاً ، نعم ، فإن الدراسات المتواصلة لهذه المؤلفات قد خلقت فى الانجليز ذوقاً أدبياً على غرارها وعلى نمطها ، أجلى مايستبينه الأديب فى مؤلفات (ملتون) الرائعة وغيره من كتاب وشعراء العصر الأليصاباتى المشهورين ، وكان أن تأثرت هذه الأدبيات بالروح اليونانية واللاتينية إلى أبعد حد ، وباتت مؤلفات كبار شعراء الانجليز الأوائل كشوسار لاتعامل كمثل أعلى يجب أن يحتذيه الأديب الانجليزى ؛ بل اقتصرت أهميتها على مجرد ماتتركه من أثر فى نفوس دارسيها الذين لم يتقدموها من تقدمهم بعد تحررهم من قيود التقاليد .

أثر التحرر الدينى :

كذا تأثرت أدبيات هذا العصر بروح حرة جريئة ، هى ثمرة الإصلاحات الدينية التى حررت العقول إلى حد ما ، وخففت عنها أعباء العادات والتقاليد ، فكان أن تيسر ذيوع الأدب بين كافة طبقات الشعب دون تحرج من قوانين الكنيسة الكاثوليكية التى كانت تقيده فى كثير من الأحيان وتحرم بعضه ، وكان أن ظهر من بين رجال الدين أدباء بارعون عالجوا الكتابة فى سهولة وفى إبانة وتشويق ، وأجلى مايستبين القارىء هذا الأسلوب فى كتاب « الشهداء » لمؤلفه فوكس .

أثر الرقى الاجتماعى :

وقد اتسع الأفق أمام الأدب باتساع مرافق الحياة ، وبما اكتسبه البلاط الانجليزى من

لأبهة والرواء إذ بلغت الحال الاجتماعية والمادية من الرقى مدى بعيد؛ ونتيجة طبيعية لهذا أن اسعى بعض الكتاب كيما يوفقوا بين أسلوب الكتابة آنئذ وبين الحال الجديدة حتى يتيسر له تصويرها فى دقة وفى جمال ، وإذا أضفنا إلى هذا ما كانت تقيمه الحكومة والأهالى من الزينات الباهرة والحفلات الكبيرة كلما جد نصر من الانتصارات الحربية ، وما كانت تحتاجه هذه الحفلات من الروايات التمثيلية التى تتفق فى مغزاها مع ما اجتمع له المحتفلون؛ أدركنا بسهولة مقدار حاجة العصر إلى أدباء روائيين يقدمون الغذاء الصالح من هذه الروايات ، وإذ لم يكن من الميسور تأليف هذه الروايات بالوفرة التى احتاجها العصر؛ فقد استعان الأدباء بالنقل عن الأدب القديم والمتوسط ، وعن أدب المعاصرين أيضاً من الطليانيين والأسبانيين وغيرهم؛ وبذلك ارتقت الرواية التمثيلية إلى حد بعيد . وأنا أشايع من يذهبون فى القول بأن الاستكشافات الجغرافية التى تمت إذ ذاك على يد الانجليز أمثال فروبيشار ورالى ودريك، قد ساعدت كثيراً على اتساع مدى الخيال أمام الأدباء ، وهذا الخيال — على حد ما أعلم — هو المادة الأساسية التى كانت القصة تتكون منها حتى عهد قريب .

خاتمة :

مما تقدم يصح لنا أن نستنتج — دون تعسف فى التأويل أو إغراق فى الاستقراء والاستطراد — أنه كان للنهضة الأوربية على الأدب الانجليزى أثر بعيد المدى حتى ذاع وانتشر وتكرست له جهود عدة، حتى انتفى عن المشتغلين به كل أثر للتحقير والاستخفاف ، إذ كان نشر الكتابات الأدبية وإذاعتها يحط من كرامة الكاتب ويقلل من مركزه الأدبى، وخاصة إذا كان هذا الكاتب من طبقة الأشراف ، بيد أن معظم كتاب هذه الطبقة أمثال فيليب سدنى وسبنسر تمردوا على هذا الجمود الفكرى ولم يأبهوا به وأخذوا الأدب صناعة لهم وسلماً إلى الشهرة والظهور ، وإذ ذاك هطلت المؤلفات القيمة كأنها الغيث ، وأقبل الشعب على الأدب كتابة ودراسة إبما إقبال .؟

رشدى ميخائيل السيسى
ليسانسيه فى الأدب الانجليزى

المعرفة فى تونس

تطلب « المعرفة » فى تونس من حضرتى وكيلينا السيد محمد الامين والسيد طاهر صاحبى المكتبة العلمية رقم ١٢ نهج الكتبية .

أو من حضرة السيد محمد بن الحاج صالح الثمينى صاحب مكتبة الاستقامة رقم ٣٤ نهج سيدى ابن عروس .